جماعة الصادعون بالحق

شروح

كتاب

معالم في الطريق

المقدمة

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

البشرية على حافة الهاوية ١
دور رسل الله في إنقاذ البشرية على مدار التاريخ ٢
نظرة للجاهلية المعاصرة ٣
القيم وأهميتها في حياة الإنسان..... ٥
نمط التفكير الأوروبي ودور اليهود في قيادة البشرية نحو الهاوية ٦
إفلاس الحضارة المادية الغربية وحاجة البشرية لقيادة جديدة..... ٨
الإسلام الصحيح بقيمه ومنهجه هو وحده المؤهل لهذا الدور ٩
كيف يقوم الإسلام بهذا الدور المنوط به؟ ١٠
مسار الانحراف في تاريخ العالم "الإسلامي"..... ١١
الخطوة الأولى لإنقاذ البشرية من الهاوية: بعث إسلامي جديد..... ١٣
مؤهلات هذه الأمة لقيادة البشرية ١٣
ما هي مهمة البعث الإسلامي الأولى؟ وما الذي يميزه؟..... ١٥
لماذا تبدأ عملية البعث في الرقعة الإسلامية؟ وكيف تبدأ؟..... ١٦
معالم في طريق البعث الإسلامي ١٧

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه واتبع هداه إلى يوم الدين. أما بعد،

فحين نستعرض مقدمة كتاب "معالم في الطريق" نجد أن الكاتب -جزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء- يحدثنا عن حقائق كبيرة، وموضوعات متباينة، ليبين لنا أهمية هذه المعالم وضرورتها.

ويقابلنا في البداية ذلك التعبير الأول الذي يبدأ به الكتاب وتبدأ به المقدمة، ليذكر حقيقة من أهم الحقائق الواقعية التي تعيشها البشرية، والتي يصفها بالوصف الدقيق لها، ويبين أسبابها، كما يبين أيضاً نتائجها، ويحدد صور العلاج، كما يحدد أيضاً مؤهلات ذلك العلاج وأشكاله ومتطلباته.

وهو في أثناء عرضه لهذه النقاط يحدد بثقة واستعلاء ويقين كل ما يعرض، ويؤكد مدى اليقين الذي كان عليه حينما كان يخاطب ليس الرواد فحسب، ولكن من وراءهم -أيضا- كان يخاطب الأرض كلها، والجاهلية كلها، وكان يخاطبها بهذا الاستعلاء الذي كان يتميز به أنبياء الله حينما كانوا يخاطبون أقوامهم مستعلين بالحق غير مستعلين بذواتهم على الخلق، فيعرضون الحق من منطلق اليقين ومن منطلق العلو بهذا الحق، بحيث لا يدع لهم فرصة أن يتصوروا -ولو للحظة واحدة- أنه يعرض عليهم شيئاً يشك فيه، أو لا يمتلئ يقينا به، وإنما يدعوهم إلى ما قد تيقن منه يقيناً كاملاً، فهو يعرضه عليهم ليأخذوه أو يدعوه ، كل ذلك يزينه الرفق وتشع من خلاله الرحمة بمن تنكبوا الطريق المستقيم.. طريق الله العلي العظيم.

فالمقدمة تعطي إيحاء رائعاً جداً، لما تحمله من الثقة المتناهية واليقين المتناهي. وهي تتميز أيضاً بقوة التحدي لهذه البشرية مجتمعة بكل قواها وبكل أنماطها وأشكالها، بحيث يُلقي -من اللحظة الأولى- في حس القارئ أنه مقبل على معالم ليس له إلا أن يحدد موقفاً منها ولا بد...

قلنا ونقول دائماً إن ميزة هذا الكتاب أنه لا يدع قارئه دون أن يحدد موقفاً من هذا الكتاب، سلباً أو إيجاباً؛ يستفزه فيجعله يراجع نفسه، ويجعله يحدد موقفاً، لكي يُقبل أو يُدبر عن اختيار واعٍ وعن دقة واعية. لهذا يبدأ الكتاب بمصادمة الجاهلية منذ اللحظة الأولى، يبدأ بحقيقة مريرة تصف واقع هذه البشرية البائسة بهذا التعبير المليء بالتحدي والسخرية، مع أنه حقيقة في ذات الوقت.

البشرية على حافة الهاوية

"تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية.. لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها.. فهذا عَرَضٌ للمرض وليس هو المرض.." ولا شك أننا نحتاج أن نقف عند حقيقة هذه الهاوية، وعند حقيقة حافة الهاوية، لأنه بقدر ما ندرك عمق هذه الهاوية وخطورتها بقدر ما تتحدد لنا معالم كثيرة في حياتنا؛

أولها: الرغبة في النجاة من هذه الهاوية.

وثانيها: الإحساس بالمسؤولية الضخمة في إخراج الناس من هذه الهاوية.

وثالثها: صعوبة المحاولة حينما نحتاج أن نخرج الناس من هاوية سحيقة إلى السطح مرة أخرى.

ولا شك أنه أمر كبير وضخم، لا تكفي فيه الكلمات ولا المواعظ، وإنما يحتاج جهداً كبيراً للتعرف على هذه الهاوية وأنواعها وألوانها ومراحلها ونتائجها في حياة البشرية التي نحن جزء منها، نعيش معها في جاهليتها، بل في أعماق هذه الجاهلية. فنحن محتاجون أن ندرك خطورتها، ونعرف كل هذه المعالم المحيطة بها، ونعرف أيضاً دورنا في إخراج الناس من هذه الهاوية.

دور رسل الله في إنقاذ البشرية على مدار التاريخ

والدارس لتاريخ البشرية يرى أنها حينما تبعد عن الله وتستغرقها الجاهلية يأتي رسول يبعثه الله سبحانه وتعالى لكي يأخذ بيدها إلى الهدى، ويقيم عليها الحجة، ويعين من أراد النجاة على النجاة، ويقيم الحجة على من رفض.

يأتي الرسل دائماً وقومهم على حافة الهاوية -هاوية الجحيم الأبدي- فيقولون لهم كلمتهم الأخيرة، ويلقون إليهم طوق النجاة قبل أن يسقطوا في أعماق الهاوية.

والرسول ﷺ في حديث له يقول (...إِنّ اللّهَ نَظَرَ إِلَىَ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلاّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...)[1]. فقبل مبعث النبي ﷺ نظر الله إلى أهل الأرض جميعاً فكان المقت هو الحكم الإلهي عليهم، لأنهم خرجوا من دين الله، وعاثوا في الأرض فساداً، وادّعوا الربوبية، وحالوا بين الناس وبين الهدى، وأفسدوا الأرض بكل ما استطاعوا، فمقتهم الله جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب. ولا شك أن كل جاهلية تكون في هذا الموقع بالضبط حينما يأتيها رسول، يكونون قد ذهبوا بعيداً عن نقطة الصواب، وضاعوا في تيه الضلال. نرى نوحا -عليه السلام- -وهو أول نبي- قد جاء بعد أن عاشت البشرية فترات طويلة في حضن الهدى وفي كنف الحق، ثم بدأت تنحرف. نرى أن الواقع الذي واجهه نوح -عليه السلام- والمؤمنون معه هو نفسه الذي يواجه الدعاة اليوم: اللجاج والعناد، والرغبة في الكفر، والسخرية من المؤمنين، والاعتزاز بالباطل وبالآلهة المزيفة وبالأصنام، والتحدي، وطلب الدليل وطلب العذاب... كل هذا هو صورة مكرورة، تتكرر كلما جاء رسول إلى البشرية، وكلما وقفت البشرية على حافة الهاوية، وأراد الله أن يقيم عليها الحجة، وينقذ من يستحق الإنقاذ.

ولا شك أن الرسول ﷺ جاء والبشرية تموج بكل ألوان العفن في كل مجالات الحياة، فكانت تقف على حافة الهاوية، سواء هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والأوثان، أم أولئك الذين كانوا من أصل أهل الكتاب. فكلهم جميعاً كانوا قد بعدوا عن الحق وضلوا عن الهدى، حتى أن سلمان الفارسي -رضي الله عنه- يحكي أن الرجل الأخير الذي كان عنده من صالحي أهل الكتاب قال له: والله لا أعرف أحداً على هذا الدين غيري[2]، وشرح له كيفية الوصول إلى المدينة لأن آخر الأنبياء سيكون هناك. فكأن الدنيا قبل بعثة النبي ﷺ كانت قد جفت فيها كل منابع الهدى، وأظلمت فيها كل منارات الإيمان، ولم يعد إلا الانتظار لبعثة النبي ﷺ وانبثاق النور على البشرية من جديد...

---

١ أخرجه مسلم.

٢ سيرة ابن اسحاق ج ١، ص ٨٩.

نظرة للجاهلية المعاصرة

فإذا نظرت إلى جاهليتنا المعاصرة وإلى واقع البشرية الآن، فلا شك أن البشرية لم تكن يوماً ما مهددة بمقت الله كما هي اليوم. ولا شك أن كل جاهليات التاريخ تستحق المقت، ولكن الجاهلية المعاصرة تستحق مقتاً أكثر وغضباً من الله أكبر، لأنها تملك كل مقومات الرجوع وكل أسباب النجاة. فالله عز وجل قد ترك فيها المنارة الثابتة القائمة الدائمة لمن يريد أن يهتدي بها، ولعل الأقوام الآخرين السابقين لم يكن عندهم منارات، فكانوا ضُلّالاً، وكانوا لا يجدون ما يهتدون به، وكانت الكتب محرفة، ورجال الدين قد اخترعوا ديناً من عندهم؛ سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو بقية أجناس العالم بأديانهم الوثنية، دون أن يكون عندهم كتاب يطمئنون أنه من عند الله.

ولكن البشرية اليوم عندها كتاب حفظه الله لها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وعندها تاريخ مليء بالنور يحكي حقيقة تلك الطائفة التي قامت بهذا الدين وعاشت به وطبقّته، وخرجت به من ظلمات التيه ومنحنياته وسراديبه المظلمة إلى قمة النور، واستطاع عتاة العرب وجهلاؤهم أن يصبحوا أساتذة العالم في فترة قياسية من عمر التاريخ، وتعرف كيف أن هؤلاء العرب الضعاف المساكين استطاعوا أن يهزموا أكبر امبراطوريتين في التاريخ في ظرف ربع قرن، وكادوا أن يأخذوا الأرض جميعاً. وعند البشرية اليوم أيضا رصيد الفطرة في قلوب الناس، بجانب الضنك الذي تعيشه البشرية اليوم؛ هذا الضنك الذي يعبر عنه قول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. فلا شك أن البشرية تعيش اليوم لحظات ضنك قاتلة، ولكنها سادرة في غيها، ومستكبرة ومصرة على التحدي.

نُشر منذ أيام مقالة عن صناعة الغيبوبة، تحدث فيها كاتبها عن واقع العالم اليوم، فقال إن العالم يعيش اليوم في غيبوبة، وأنه لا يعرف طريقه إلى الراحة وإلى السعادة، واستعرض كثيراً من أنواع الشقاء وأنواع الغيبوبة.. وقال: إن صناعة الغيبوبة تُغّيب الناس عن الحق وتُغّيب الناس عن النور لكي يظلوا في تيه الظلمات، وأن الجاهلية أصبحت متخصصة في إضلال الناس وإبعادهم عن الحق، وجعلهم يعيشون دائماً في نصف وعي أو ربع وعي، أو في غيبوبة كاملة فلا يرون أنفسهم.

ولا شك أن الناظر في حياة الجاهلية يتعجب جداً؛ أليس في القوم عقلاء؟ حتى هؤلاء العقلاء!! حينما يتحدثون تجدهم يبحثون عن أساليب للنجاة بعيدة كل البعد عن تحقيق النجاة، لأنهم دائماً يبعدون عن الحق، لأنهم لا يريدونه حقيقة، ولأنهم يريدون النجاة من أجل الاستمرار في الحياة التي يعيشونها، لكنهم يعرفون أن طريق الهدى وطريق الحق الذي هو السبيل الوحيد للنجاة سيكلفهم ما لا يريدون وما يكرهون. فلذلك حتى عقلاء القوم لا يبحثون عن الحق، وليسوا مستعدين للالتزام بالحق.

فالبشرية إذن تقف على حافة الهاوية. والقرآن تحدث وخاطب المؤمنين الأوائل بهذا الأمر ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ويقول عز وجل ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٩]. فحافة الهاوية حقيقة تعيش فيها البشرية كلما حادت عن دين الله وعن دين الأنبياء جميعاً. فنحن بحاجة أن نعرف حقيقة الهاوية، وأن نعرف خطرها.

والقرآن يعبر أيضا عن هذه الهاوية فيقول ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].. فهو قد وصل إلى عمق الهاوية لأنه أشرك وأصر على الضياع. والرسل يأتون ليأخذوا بأيدي الناس بعيداً عن النار وبعيداً عن الهاوية. فمن شاء أن يؤمن فليؤمن، ومن شاء أن يكفر فليكفر.

وحينما نخاطب البشرية فنحن نخاطبها بخطاب المستيقن والمستغني والمستعلي والمتحدي في ذات الوقت، وهذا يحتاج منا أن نكون قد امتلأنا بهذه الحقيقة، وأصبحنا على يقين بها، وعندنا من الاعتزاز والإصرار والفرح بحيث نستطيع أن نواجه الأرض جميعاً. ونكون أيضاً من القوة وعدم الخوف وعدم التردد بحيث نعرف أننا حينما نواجه الجاهلية نعرف أنهم جميعاً على حافة الهاوية، وأنهم سيرموننا عن قوس واحدة، وأنهم لن يهادنونا أبداً.

ونحن نرى الآن على صفحات الصحف أن أكثر شيء يضيقون به من الجماعات الإسلامية أنها أحادية الفكر؛ يتهمونها أنها أحادية الفكر.. خطأ وصواب، إيمان وكفر، حق وباطل.. فهم لا يعطون الجاهلية فرصة لكي تجادل أو تعتذر أو تبرر.. وهذا يذل كبرياء الجاهلية.. فأكثر شيء يضيقون به هو إصرار المسلمين على النظر إليهم على أنهم الطرف الخاسر الممقوت، فهم يستجْدون الحوار... حاورونا... اعترفوا بالرأي الآخر أعطونا فرصة لنتفاهم، ليس بالضرورة أن تكونوا على صواب مطلق.. استجداء المنهزم، الذي يُلبسونه ثوب المهاجم كي يبدوا أنهم هم الأقوياء. وهذا ما يجب أن نفهمه من خلال ما يقولونه كثيرا في كل وسائل الإعلام؛ عن دعاة الحق من أنهم جهلة لا يعرفون الإسلام، ولذلك فهم يحكمون على بقية الناس بالكفر. فهذه المسألة تضايقهم جداً.. ولكن هذه هي الحقيقة ومادامت حقيقة فيجب أن تعلن صريحة مدوية.. ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١].. هكذا بهذا المنطق الواضح ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١].

الجاهلية على حافة الهاوية، وكما يقول؛ ليس بسبب التهديد بالفناء.. فالفناء نتيجة طبيعية لما تفعله الجاهلية، وما تعصي به الله، وما تنحرف به عن طريق الله.. فلا بد أن تنهار الحضارة، أي حضارة في التاريخ مهما علت لا بد أن تسقط إذا بدأ الناس يعيثون في الأرض فساداً. حتى الحضارات المادية تظل قوية طالما أبناؤها يأخذون بأسباب القوة ويتكاتفون، ويتعاونون، ويقومون بواجباتهم، ويحرصون على مواعيدهم، ويحسنون إتقان العمل. هذه قيم رفيعة، رغم أنها قيم مادية، لكنها قيم ضرورية لإقامة الحضارة.

ولكن حينما ينزع الناس إلى الشهوات، ويصلون إلى درجة من الترف، ودرجة من التعالي والغرور، تبدأ هذه الحضارة المادية في التفكك والانهيار.. لأنهم يصبحون لا يتقنون عملا، لأنهم يريدون أن يعيشوا في الترف وفي الشهوات، ولا يحرصون على مواعيدهم، ويظلم بعضهم بعضاً.. فتنتهي الحضارة، وهذا أمر لا بد أن تصير إليه كل جاهلية.

فالفناء معلق على رأس البشرية بسبب استغراقها في البعد عن الله. ولهذا يقول الأستاذ سيد؛ أن هذا ليس هو المرض، ولكنه عرض للمرض.. فالفناء عرض. كالمريض الذي يموت.. الموت ليس هو المرض.. ولحظة النهاية ليست هي المرض.. ولكن ما كان يعانيه من نقص وعطب في أجهزته هو المرض. فالبشرية تعاني، وكيانها كله مريض وكله منحرف، وكله مشوه.. وهذا هو الذي يهددها بالفناء. وهذا الفناء هو عرض ونتاج وليس هو المرض ذاته. ولكن إفلاسها في عالم القيم هو حقيقة المرض.

القيم وأهميتها في حياة الإنسان

ونجد أن الأستاذ سيد قد استعمل هنا كلمة القيم ليعبر بها عن كل ما هو عظيم في حياة الإنسان، وكل ما هو جميل في حياة الإنسان، وكل ما هو حق في حياة الإنسان؛ سواء كانت قيمة العقيدة، أو قيمة الخلق، أو قيمة السلوك، أو قيمة التطور، أو أي قيمة أخرى من القيم. فهي كلها قيم. والإنسان يكون إنساناً بهذه القيم. وبدون هذه القيم لا يكون إنسانا.

وبالمصاحبة التاريخية لنشأة البشرية، نجد أنها نشأت حينما أحس الإنسان بالقيم، حينما نفُخت الروح في الطين المسجى على الأرض بدأ آدم يصبح إنساناً. فقبل أن تُنفخ فيه الروح كان طيناً لا حراك له، وكان الملائكة يمرون عليه لا يعرفون ما هو هذا المخلوق، أو ما هو هذا الشيء. فلما نفخت فيه الروح وجدوه شيئا آخر.. كيانا جديدا، كيانا لا مثيل له في المخلوقات، كيانا متفردا. ولم تسجد الملائكة ولم يؤمروا بالسجود له إلا حينما نفخت فيه الروح ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].. فالروح هي التي أعطت الإنسان وأعطت هذا الطين قيمته، فإذا استعلت الروح وقادت الكيان الإنساني صار إنساناً. وإذا حدث العكس وقاد الطين الكيان الإنساني، أو كانت قبضة الطين هي التي تقود الإنسان فإنها لا تقف به فقط عند نقطة الحيوان ولا عند نقطة الجماد ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. والقرآن يعرض لنا هذه الصور من خلال بُعد الناس، ومن خلال بُعد بعض النماذج عن الأمانة التي اؤتمنوا عليها وعن الحق الذي أكرمهم الله به ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥] فالحمار لا يحس بتلك الأسفار القيمة التي يحملها، وهو لا يعي منها شيئاً، ولا يستفيد منها. فالإنسان الذي يعرف الحق ولا يقوم بحقه كالحمار، بل هو أقل وأدنى من الحمار، لأن الحمار معذور، لأنه لا يعلم. لكن عندما يكون الحمار في صورة آدمي، عنده عقل يستطيع أن يفكر، حينذاك يكون أضل.

ويقول الله تعالي ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]. ولا شك أن الإنسان الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها واتبع هواه وأخلد إلى الأرض، لا شك أنه كانت لديه فرصٌ ضخمة جداً؛ كان عنده علم وكانت عنده إرادة، وكان يستطيع أن يرتفع بهما، لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب. ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]، فالله سبحانه وتعالى ينفي عنهم العقل، وينفي عنهم السمع، ويعتبرهم أضل من الأنعام ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥].

فلا شك أن الإنسان حينما يستغرق في طين الأرض، وحينما تعتم عكارة الطين أنوار الحق فيه، يصبح أدنى من الحيوان وأضل. وحينما يخاطبنا القرآن بهذا المعنى يستجيش في نفوسنا الغيرة على أنفسنا، ويستجيش في البشرية ألا ترضى لنفسها أن تنزل إلى مستوى أضل من الحيوان. فلو أن للبشرية عقلاً وإدراكاً لأبت أن تنحدر إلى هذا المصير؛ مصير الحيوان الذي هددها الله به، ثم الخلود في النار بعد ذلك ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

نمط التفكير الأوروبي ودور اليهود في قيادة البشرية نحو الهاوية

ولكن الجاهلية في كثير من أحيانها تصر على الحيوانية، بل تستمتع أن تكون حيواناً، وتكون نادمة على أنها إنسان. ونهضة أوروبا المعاصرة كلها قامت على أساس حيوانية الإنسان، والحيوانية مطلب للغربيين.. مطلب فكري عند المفكرين ومطلب جماهيري عند الجماهير؛ هم يريدون أن يكونوا حيوانات، ولا يريدون أن يكونوا بشراً، بل هم مصرون على هذه الحيوانية. والله عز وجل يقول ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] ويقول عز وجل ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، لكن الناس لا يريدون ذلك، لا يريدون أن يكونوا خلفاء، ولا يريدون أن يكونوا آدميين، يريدون أن يكونوا حيوانات. فالنهضة المعاصرة قامت على أساس حيوانية الإنسان. ونظرية دارون التي تعتبر في التاريخ الأوروبي هي أم النظريات، والتي يعتبرونها المخرج الذي جاء ليخرجهم من طغيان الكنيسة ومن طغيان الدين ومن كبت الرهبانية ومن كبت التطهر.. جاءت لتعطيهم المخرج، فتمسكوا بها، جاء دارون ليتحدث عن مظاهر التنوع في الأحياء في سلم متصاعد. لم يكن يتحدث عن الفكر، ولا عن تاريخ البشرية الفكري والثقافي والاجتماعي والديني. وإنما كان يتحدث عن الجانب البيولوجي في تطور الأحياء.

لكن اليهود جاءوا واستغلوا هذه النظرية ليستخرجوا منها إيحاءات قاتلة للحياة الإنسانية، ويبرروا بها لأوروبا كلها التمرد على الكنيسة، بل التمرد على الدين ذاته، لأن اليهود أرادوا أن يخرج المسيحيون من الدين عموماً، ولا يهتدون إلى دين أفضل، أو أن يصححوا أوضاعهم الدينية، لأن اليهود كان لهم مكسب في ذلك؛ فهم كانوا يريدون إزالة الحواجز الدينية لأنهم كانوا يُضطهدون باسم الدين، وكان الأوروبي حتى وهو يقترض مالاً من اليهودي يعامله كالكلب، يقول له ضع المال على المنضدة ولا تلمسني بيدك. كان اليهود يشعرون بالاضطهاد العنيف، فلما بدأت بوادر الثورة على الكنيسة وتنادوا أن اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس، حرص اليهود أن يبعدوهم تماماً عن الدين. كانت هناك ثورة على الكنيسة ولكن لم يكن هناك ثورة على الدين. فجاء اليهود ليقلبوها لتكون ثورة على الدين وثورة على الله وثورة على كل القيم. واستغلوا نظرية دارون، وجعلوها قاعدة الانقلاب الذي حدث في أوروبا.

لم يكن دارون أول من جاء بنظرية التطور، إنما سبقه إليها رجل فرنسي اسمه لامارك، جاء بنفس النظرية، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يستغلوها ويوظفوها في ذلك الوقت، لأن الكنيسة حينذاك كانت قوية. ولكن عندما ضعفت الكنيسة، وبدأ الناس يتململون، وبدأت الثورة ضد الكنيسة، استطاعوا أن يستغلوا نظرية دارون وإيحاءات نظرية دارون لينحرفوا بأوروبا ويحرموها والبشرية من ورائها من كل أمل في أن تعود إلى الله سبحانه وتعالى، لأن أول إيحاء في نظرية دارون هو إنكار الخالق. يقول دارون "إن افتراض قوة عاقلة أو قاصدة في عملية خلق الحياة هو إدخال عنصر غير طبيعي في عملية ميكانيكية بحتة". فأخذوا تعبيرات دارون ليؤكدوا أنه -علمياً- ليس هناك خالق، وأن الحياة نشأت من وضع ميكانيكي بحت، ومن مصادفة بحتة، ولم يكن هناك داع لافتراض أن هناك قصداً أو إرادة وراء عملية الخلق. وهم حين ينكرون الخالق سبحانه فإنهم يسحبون البساط من تحت أقدام الكنيسة التي كانت تستطيل عليهم باسم الرب. فليسقط هذا الرب لتسقط الكنيسة، لأن الكنيسة كانت تقول إن يسوع الرب قال لها: إني وهبت سلطاني لكنيستي، وأن ما تربطه الكنيسة في الأرض يربطه الله في السماء، وما تحله في الأرض يحله الله في السماء. فالكنيسة كانت قد أصبحت إلهاً. فلكي يبطلوا هذه الحجة استغلوا

نظرية دارون في إنكار الخالق. وأصبح إنكار الخالق صيحة علمية، من ينكرها يصبح متخلفاً علمياً، لأن النظرية الجديدة أثبتت أنه ليس هناك خالق.

والإيحاء الثاني لنظرية دارون هو: حيوانية الإنسان: فالأديان تحيط الإنسان بهالة من العظمة، فهو خليفة الله، خلقه الله بيديه، وفضله على جميع خلقه، وميزه عن جميع الخلق بالعقل.. فالإنسان إذن له هالة كبيرة تمنعه من حرية الهبوط. وهم كانوا قد ضاقوا بالكنيسة، وضاقوا بتعاليم الكنيسة، وضاقوا برهبانية الكنيسة، وبتحريم الكنيسة لأشياء كثيرة، ويريدون أن يعودوا إلى همجيتهم التي كانوا عليها حينما كانوا يوناناً ورومانا. فجاءت فكرة حيوانية الإنسان سليل القردة العليا، والقردة العليا سليلة القردة الدنيا، والقردة الدنيا سليلة الثدييات الأولى.. وهكذا الإنسان إذن، حلقة من سلسلة طويلة لا قيمة لها، وليس له ميزة خاصة يتعالى بها عن هذا الطابور الأحيائي، فهو شيء من هذا الطابور.. هو حيوان.. ومنذ قريب كان قرداً، وكان وكان وكان..

وبما أن الإنسان حيوان، إذن لا داعي أن يكون له أخلاق، ولا داعي أن يكون له دين، ولا داعي أن يكون له قيم.. فليكن حيواناً، وأي محاولة لرفعه عن مرتبة الحيوان هي -ابتداءً- جهل علمي، فضلاً عن أنها ظلم للحقيقة، فضلاً عن أنها تعذيب للإنسان. إذن لا بد أن يتحرر الإنسان من إنسانيته، ويصر على حيوانيته. فأصبحت فكرة حيوانية الإنسان هي قاعدة كل مفكري أوروبا بعد دارون، كلهم ينطلقون من نقطة ثابتة ألا وهي أن الإنسان حيوان.. ثم يختلفون في شكل الحيوان، لكنه حيوان.. فرويد يقول إنه حيوان جنسي، المدرسة السلوكية تقول إنه حيوان بلا إرادة وبلا تفكير وبلا اختيار، فهو إنسان يتحرك بأفعال شرطية عكسية، فهو ليس مسئولاً عن عمله، ولا يمكن أن يكون مسئولاً عن عمله.

وتأتي الوجودية لتجعل الإنسان حراً في تحقيق وجوده بالطريقة التي يريدها، وأن الجحيم هم الآخرون كما يقول جان بول سارتر.

فحيوانية الإنسان إيحاء خطير جداً أحل الإنسان من كل قيد. فبما أن الحيوان لا يستحيي أن يأتي أنثاه في الطريق فلماذا يستحيي الإنسان أن يفعل ذلك. لقد نجحوا فعلاً أن يجعلوا الإنسان في أوروبا وأمريكا لا يستحيي أن يأتي الأنثى في الطريق، ويصبح الاعتراض على هذا نوعاً من الرجعية ونوعاً من التخلف ونوعاً من التدخل في شؤون الآخرين بطريقة همجية لا تصح، ويصبح السلوك الحضاري من وجهة النظر الجديدة أنك عندما ترى هذا الأمر فإن عليك أن تعده أمراً لا يهمك، وأمراً لا يضايقك، كأنك رأيت إنساناً يأكل ويشرب، فهل ستضيق؟ فهو رجل يمارس إحدى رغباته الفطرية، كما يجوع فيأكل، وكما يعطش فيشرب، فهو يشتهي الجنس فيمارس الجنس في الطريق، في الحافلة، في الحديقة، في أي مكان.. لماذا تنظر إليه هذه النظرة، أنت إذن متخلف، ومن حقه أن يرفع عليك قضية لأنك تنظر له نظرة تحرمه من حق طبيعي له. وهكذا نجحوا في أن يجعلوا الإنسان حيواناً.. حيوانا -كما يراه فرويد- جنسيا، لا يحركه إلا الجنس. وفرويد كان يرى أن كل قيد على الحرية الجنسية هو قيد على سعادة الإنسان. ويعتبر الأخلاق في صورتها الطبيعية شذوذاً، ويعتبر التسامي شذوذاً، ويعتبر أن الحضارة قامت على حساب سعادة الإنسان لأنها استغلت جزءاً من طاقته الحيوية في العلم والابتكار والبناء والترقي، فهي صنعت له حضارة، لكنها أتعسته، لأنها لم تتركه يعيش كالحيوان الحر الطليق السعيد الذي يعيش في الغابة. والحيوان لم يفكر أن يصنع له حضارة، فلماذا يسعى الإنسان إلى ذلك ويحرم نفسه، ويقيد نفسه باسم الحضارة والتسامي والقيم؟!

والمقصود من هذا الاستطراد أن نتعمق في الأمور، ونرى نمط التفكير الأوروبي، ونظرته إلى الحقائق العظمى بهذا المنظار المقلوب، لكي ندرك حقيقة الموقف.. فليس الموقف هو مجرد كفر بالله، أو تشكك في وجود الله، القضية هي قضية انفلات الفطرة من كل قيد، والإصرار على البعد عن كل ما يُكرّم الإنسان.

فحيوانية الإنسان أصبحت مطلباً جماهيرياً، والإنسان الذي لا يريد أن ينزل إلى مستوى الحيوان يصبح إنساناً لا مكان له في الحضارة الأوروبية. ولذلك هم يريدون أن ينشروا هذا الأمر بعنف في كل مكان من الأرض من خلال مؤتمرات السكان، ومؤتمرات المرأة، والمؤتمرات المختلفة، ومن خلال الدعارة المعلنة الدائمة في أمريكا وأوروبا وغيرهما، فعندما تكون في بلد غربي فإنك تجد على محطات الأوتوبيس ومحطات مترو الأنفاق صوراً ومجلات بذيئة جداً جداً، معروضة تعلن عن الفاحشة، وعن عناوين بائعات الهوى واللذة المحرمة.. وفي لاهاي وأمستردام شوارع مخصوصة لعرض النماذج البشرية في الفترينات لطلاب المتعة، تعرض المرأة عارية تماماً كما ولدتها أمها؛ نموذج يعرض بالسعر والساعة.. وأولاد معروضون أيضاً في الفترينات، مثلما تشتري حذاء أو بدلة أو فستانا.. تختار الرقم وتدخل وتؤجر البضاعة. هذا الأمر لم تفعله أي جاهلية في التاريخ بهذا الإصرار وبهذا التبجح الذي هو موجود في الجاهلية المعاصرة. وهذا يدفعنا إلى الإصرار على تطهير هذه الجاهلية أو الموت دون ذلك، ورفض أي نوع من المساومات، أو أي نوع من المهادنة. فهذه أمور لا يقبلها أي إنسان نظيف، فضلاً أن يكون مؤمناً برسالة الأنبياء. إن تحرر البشرية من عالم القيم الأصيل هو الذي أدى بها إلى هذا الانحطاط وإلى هذا الضياع؛ سواء في المعسكر الشرقي، أو المعسكر الغربي. وقد يقال إن المعسكر الشرقي قد سقط.. نعم، هو سقط نظاماً، ولكن ما زال للفكر الشيوعي جذوره في هذه الكتلة الشرقية، وفي كثير من الأحزاب الشيوعية في العالم، هو سقط كنظام؛ لأنه كان يحمل موته في طيات وجوده، فما كان ليمكن أن يعيش وهو يضاد الفطرة. وقد تظافرت قوى من داخل النظام الشيوعي وخارجه لإسقاطه؛ لأنهم صاروا يخافون أن يتمرد المقهورون بنير هذا النظام ويأخذون في التطلع والبحث عمن يخلصهم من هذا الظلم والشقاء ، وساعتها لن يجدوا من يُعتق رقابهم وضمائرهم من قيد العبودية... لن يجدوا ذلك إلا في الدين الحق دين الإسلام، وخاصة أن الجهاد الأفغاني كان قد تسرب تأثيره إلى الأقاليم السوفيتية ذات الأصل الإسلامي، وبدأ الناس يأملون وينتعشون، ويتخيلون أنهم لو فعلوا مثل أفغانستان فمن الممكن أن يتحرروا، فأدرك المخططون أن هذا خطر كبير، فعجّلوا بإسقاط الاتحاد السوفيتي بسرعة مذهلة ومضحكة وغير متوقعة، لا لأنفسهم، ولا للمخططين. سقط بسرعة جداً لكي ينجرف الشرق هذا في أحضان الغرب فيعطيه بدائل ويغذيه بالحرية والترف، فيهدأون ولا يبحثون عن الدين. وسواء كان الشرق أو الغرب فكلاهما بعيد عن القيم، وبعيد أيضاً عن الله، وبعيد عن الخالق، وبعيد أيضا عن المُقوِّم الرئيسي، وهو الأسرة. فكل الأفكار الأوروبية تحطم الأسرة، لأن الأسرة هي منبع الخير ومنبع القيم في حياة الناس، فلا بد أن يحطموها، فتتحطم الوحدة الأساسية الموجودة في البشرية التي هي محضن القيم الرفيعة.

إفلاس الحضارة المادية الغربية وحاجة البشرية لقيادة جديدة

ونتيجةً للإفلاس في القيم أصبحت أوروبا لا تصلح للقيادة. ولا بد من قيادة جديدة.. **"إن قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال.. لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست مادياً أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية.."** وهذا واضح أمامنا.. فهي ليست ضعيفة مادياً، وليست ضعيفة عسكرياً، وأمريكا تعتبر نفسها -الآن- سيدة العالم، تؤدب من تشاء وتفعل كل شيء من الناحية العسكرية ومن الناحية المادية والاقتصادية. ومعاهدة الجات وكل الأحداث الجارية تدل أنها ماضية في مزيد من القوة الاقتصادية،

ومزيد من القوة العسكرية.. **"ولكن لأن النظام الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيداً من "القيم" يسمح له بالقيادة."** فسيؤتَى هذا النظام من تفلته من القيم وانهيار القواعد الأساسية التي تقيم إنسانية الإنسان، وتقيم كيان الإنسان. فإذا سقطت هذه الأعمدة الأساسية لم ينفعه الاقتصاد المتقدم ولا القوة العسكرية..

"لا بد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية، عن طريق العبقرية الأوروبية في الإبداع المادي، وتزود البشرية بقيم جديدة جدَّة كاملة -بالقياس إلى ما عرفته البشرية- وبمنهج أصيل وإيجابي وواقعي في الوقت ذاته." وعندما يتحدث عن القيم الجديدة لا يقصد الإسلام النظري، فليست العبرة بوجود المرجع والنظرية، ولكن العبرة بممارسته في عالم الواقع. فالبشرية لا تمارس اليوم القيم الإسلامية؛ لا في العالم الذي كان إسلامياً، ولا في العالم الجاهلي. ولذلك فالقيم التي يأتي بها الإسلام قيم جديدة جدة كاملة، رغم وجودها بين دفتي الكتب، وفي التاريخ الإسلامي، ولكنها بالنسبة للواقع البشري المعاصر هي قيم جديدة جدة كاملة.

ونحن نرى التناقض حتى في أوساط بلادنا.. تجد البنت محجبة ولكنها تتزين بكل أنواع المساحيق وتلبس الثياب الفاقعة الألوان، وهذا له دلالة واحدة.. أن الإسلام ليس مفهوما، وكذلك الغرض الأساسي من الحجاب ليس مفهوما. ترى نساء يؤدين العمرة ويطفن بالبيت الحرام بثياب حمراء وبألوان مثيرة، مما يدل على أن معنى الفتنة غير مفهوم، ومعنى الستر غير مفهوم، ومعنى العفة غير مفهوم، ومعنى عدم إثارة الرجال بفتنة المرأة غير مفهوم. إذن الحجاب ليس له قيمة. فالعبرة ليست بتغطية الجسد. العبرة أن هذا الجسد يوحي بالعفة والحشمة والنظافة حتى لا يطمع فيه الرجال، ولا يستثير فيهم أي نوع من الإثارة.

الإسلام الصحيح بقيمه ومنهجه هو وحده المؤهل لهذا الدور

الإسلام إذن يقدم قيما جديدةً جدة كاملة، وفي نفس الوقت يحافظ على نتاج العبقرية الأوروبية في عالم المادة. لأن الإسلام لا يرفض المادة، ولا يرفض الطيبات، ولا يرفض الدنيا النظيفة. بل يعتبر أن عمارة الأرض جزء من وظيفة الإنسان في الحياة تحت شروط خاصة. إذن ليس هناك خوف من قيادة الإسلام للبشرية، لأن من مهامه أن يحافظ على هذا الإنجاز الحضاري ولكن بعد ترشيده.

"والإسلام -وحده- هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج.

لقد أدت النهضة العلمية دورها.. هذا الدور الذي بدأت مطالعه مع عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي، ووصلت إلى ذروتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.. ولم تعد تملك رصيداً جديداً.

كذلك أدَّت "الوطنية" و "القومية" التي برزت في تلك الفترة، والتجمعات الإقليمية عامة دورها خلال هذه القرون.. ولم تعد تملك هي الأخرى رصيداً جديداً.

ثم فشلت الأنظمة الفردية والأنظمة الجماعية في نهاية المطاف.

ولقد جاء دور "الإسلام". ودور "الأمة" في أشد الساعات حرجاً وحيرةً واضطراباً.."

ولا شك أن البشرية الآن وخاصة العالم الإسلامي الذي يتخبط بصورة غير منطقية أكثر من أي منطقة أخرى في العالم. لأن المسيحيين والوثنيين والشيوعيين، كلٌ يعرف ما يريد. الرأسمالي منطقي مع الرأسمالية، والشيوعي منطقي مع الشيوعية، والوثني متفاهم مع الوثنية، منحط ومنطقي مع الانحطاط.

لكن العالم الإسلامي يرفع قيماً عالية جداً، ويتكلم في قضايا الإسلام بنصاعة شديدة. وحينما تسمع محطات القرآن الكريم وتسمع المتحدثين فيها وهم يتكلمون عن الإسلام، وعن الأخلاق في الإسلام، وعن الأسرة في الإسلام، وعن التعاون، وعن النظافة، وعن التطهر.. الخ.. تسمع كلاما رائعا جدا، وقيما رائعة جداً، ويُضطر الحكام أيضاً أن يقولوا مثل هذا الكلام في مؤتمراتهم. لكن الواقع غير ذلك، فليست هناك منطقة تعيش في حالة من الانفصام والحيرة والاضطراب كما تعيش هذه الأمة التي كانت يوماً ما إسلامية.

فدور الإسلام جاء والأمة في أشد أوقاتها حيرة واضطراباً. ولا بد أن يكون هناك أسلوب معين يتمشى مع واقع هذه الأمة. كيف نوصل لها الإسلام ومن ورائها البشرية كلها؟ لا بد أن يكون هناك شيء مبتكر، شيء يحقق هذه المهمة.

"جاء دور الإسلام الذي لا يتنكَّر للإبداع المادي في الأرض، لأنه يعدُّه من وظيفة الإنسان الأولى منذ أن عهد الله إليه بالخلافة في الأرض، ويعتبره -تحت شروط خاصة- عبادة لله، وتحقيقاً لغاية الوجود الإنساني."

كيف يقوم الإسلام بهذا الدور المنوط به؟

لكن الإسلام لكي يخرج الناس من الظلمات إلى النور لا يقوم وحده، ولا يتحقق إلا من خلال وسط حي، من خلال تجمع بشري، من خلال أمة تمثله. لا بد من أمة تغير ما بنفسها ليغير الله حالها من السقوط إلى الرفعة ومن المهانة إلى العزة ومن الضعف إلى القوة ومن الشقاء إلى السعادة ومن الخوف إلى الأمن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

"ولكن الإسلام لا يملك أن يؤدي دوره إلا أن يتمثل في مجتمع، أي أن يتمثل في أمة.. فالبشرية لا تستمع -وبخاصة في هذا الزمان- إلى عقيدة مجردة.."

البشرية تريد أن ترى عملاً. وكل شيء له وجود واقعي أثقل عند الناس من أجمل النظريات المرفرفة في الخيال. فالإسلام لا بد أن يتحقق في تجمع يجسد مبادئ الأمة المسلمة في تصوره للحياة، وفي منهجه، وفي أخلاقه، وفي سلوكه، وفي علاقاته. لا بد من قيام هذا المجتمع. لأن العالم الإسلامي الآن يتشدق بالإسلام، ولا يقيم الإسلام في الواقع. وبالتالي سيظل أكذوبة كبيرة يؤكدها تناقض الناطقين بالإسلام مع ما يزعمونه، يستوي في ذلك أكثر الدول التزاماً بالإسلام -بزعمها- وأكثرها خروجاً عنه فكلهم لا يقيمون الإسلام. والجاهلية تعرف ذلك رغم الشكل الظاهري، ورغم تلك الغلالة التي تخفي ورائها أشد أنواع الانحراف.

فما الذي يقنع الناس إذن الآن بالإسلام؟ لا بد أن يكون هناك تجمع يقوم على الإسلام. لأن الأمة المسلمة كما يقول الأستاذ سيد... **"ليست "أرضاً" كان يعيش فيها الإسلام. وليست "قوما" كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي.."** وهذا هو الواقع الآن. العالم الإسلامي كله يتشدق بأمجاده السابقة وبماضيه. لكنه في الواقع لا يفعل شيئاً. والعجيب أن علماء الأمة أو من يدعون أنهم علماء لا يدركون هذا الأمر.

"ولا بد من "إعادة وجود" هذه "الأمة".."

هذه الأمة المسلمة التي يصفها -بحسب تعبيره- "بأنها ليست تاريخا، وليست مجرد مكان. وإنما الأمة المسلمة جماعة من البشر، تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي".

هذه الأمة بهذه المواصفات قد انقطع وجودها بانقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعاً. ولا شك أن هذا التعريف ليس جديداً. فهذا هو الحق. والحقيقة عندما تكون حقيقة تكون بسيطة جداً. لكن مع بساطتها تبدو غريبة جداً على أهل الباطل.

ومع ظهور هذه الحقيقة ساطعة كالشمس في رابعة النهار فإننا وجدنا علماء الأزهر يُخرجون بياناً من داخل أروقة الأزهر يقولون فيه: {وحكومتنا لا ترد لله حكماً}؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون. فالأمة التي تكون بكل هذا الترهل وكل هذا الضياع يقال عن حكومتها أنها حكومة مسلمة لا ترد لله حكماً!! إن هذا يؤكد حقيقة طالما تحدثنا فيها ألا وهي أن العلم ليس هو كم المعلومات التي حُشي بها الدماغ، وأن العلماء ليسوا أولئك الذين يحفظون الكتب والمراجع ويلوكون قضايا الفقه والأصول دون أن يعيشوا الإسلام عقيدة في الضمير، وواقعا في السلوك. ليس هؤلاء علماء، ولكنهم جهلاء في حقيقة الأمر.. بل هم خونة ومضلون. فالذي يشهد هذه الشهادة بهذا الوضوح للطاغوت إنما هو خائن وجاهل ومضلل، ويحسبون بعد ذلك أنهم مهتدون. الحقيقة بسيطة، لكنهم لا يريدون أن يعرفوها.

لا بد من إعادة هذه الأمة لكي يؤدي الإسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة أخرى. فالإسلام -كما نقول- لا يقوم وحده. لا يقوم إلا من خلال جماعة مسلمة. لا بد من إعادة الأمة. وإعادة الأمة لها طريقها، ولها أسلوبها. لا بد من بعث لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات وركام الأوضاع وركام الأنظمة لا بد من بعث لتلك الأمة.. التي لا صلة لها بالإسلام، ولا بنظامه، وإن كانت لاتزال تزعم لنفسها أنها قائمة فيما يقال العالم الإسلامي وهي مقولة أشد ما تكون بعداً عن الحقيقة، وما هذا العالم الذي يوصف اليوم زوراً وبهتاناً ب "الإسلامي" إلا نتاج ركام طويل. ركام من التصورات وركام من الأوضاع وركام من الأنظمة. ركام هائل جداً. ليس نتاج سنين قليلة، وإنما هو ركام بدأ مبكراً جداً. منذ أن سقطت الخلافة الراشدة بدأ الركام. وككل ركام يبدأ بذرات قليلة من التراب، ولكن بعد قليل يتجمع، فتجده أصبح أكواماً هائلة من الأتربة والنفايات التي تغطي الأفق.

مسار الانحراف في تاريخ العالم "الإسلامي"

لا شك أن كل ركام له بداية. ولا شك أن بداية الركام قد حدثت في حياة الأمة المسلمة وبصورة أثرت على تاريخ الإسلام كله والمسلمين حينما تحولت الخلافة من خلافة راشدة ومن بيعة حرة ومن عقد بين الأمة وبين من تختاره للخلافة إلى أن تصبح ولاية عهد محصورة في أسرة. ورغم أن العلماء أجازوا ولاية العهد للمتغلب كأمر واقع واتقاء للفتن، لكن لا شك أن هذه المسألة أثرت تأثيراً كبيراً في نمو العالم الإسلامي. لأن أي مجتمع يحتاج قيادة واعية، متفتحة العقل والبصيرة، تقية، غيورة على ما تدعو إليه وما هي مسئولة عنه. وولاية العهد جاءت على مدار التاريخ بحكام كثيرين، لم يكونوا غيورين على الإسلام، ولا ملتزمين به، ولا حريصين عليه. وهذا يفسر كل الركام الذي حدث في التاريخ الإسلامي، ممثلاً في السلوك الخطأ، وممثلاً في الفرق الكثيرة التي جاءت، وممثلاً في الانقسام والتشرذم الذي بدأ أيضاً مبكراً في التاريخ الإسلامي. لو أن هناك حكاماً كعُمر الذي كان يحمي الأمة، ويتابعها، ويعمل من أجلها، حتى لينشغل ببغلة عثرت في العراق فيخشى أن يُسأل عنها لمَ لمْ يسوِ لها الطريق؟ لو أن الحكام كانوا على مثل هذا الوعي لما نشأت هذه الفرق.

كيف تنشأ فرق كالمعتزلة وإخوان الصفا والفلاسفة والجهمية والقدرية وغيرها؟

كيف نشأت؟ وأصبح لها وجود وأتباع، وأصبحت لها قوة، حتى أنهم يستطيعون أن ينزعوا الحجر الأسود من مكانه ويأخذوه ويهربوا به.. كيف يحدث هذا؟ إلا أن تكون هذه الأمة قد دخلت في حالة من الغيبوبة، وحالة من الانهيار المادي والمعنوي.

فلا شك أن ولاية العهد كانت تأتي بخلفاء يندر فيهم من يستحق الخلافة. فالمعتصم -مثلا- كان قائدا جبارا، وحاكما قويا، أذلَّ الرومان. لكنه اشترك في فتنة أحمد بن حنبل التي أجبر الناس فيها على أن ينشغلوا بمسألة خلق القرآن. وقبله كان المأمون، وهو من أقوى خلفاء بني العباس، ثم جاء بعده المعتصم والواثق. وكل هؤلاء كانوا أقوياء، ولكنهم كانوا متأثرين بالثقافة والفلسفة الرومانية واليونانية، وبالفكر المعتزلي العقلاني. لكننا نرى -مثلاً- عمر بن عبد العزيز عندما جاء بعد مجموعة من الحكام الذين سبقوه، رغم أن كثيراً منهم كان حاكماً محترماً.. مثل عبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك. فقد كانا من الفقهاء، لكنهم لم يكونوا على إخلاص عمر، ولا على قوة عمر في دينه وورعه. أقول: عندما جاء عمر بن عبد العزيز غيَّر في خلال سنتين تاريخ الدولة التي كانت قد بدأت تترهل في حياتها. فقبل عمر بن عبد العزيز كان الرجل يقابل الرجل فيسأله: كم بنيت من البيوت والقصور؟ وكم اشتريت من الجواري؟ وكم كسبت من المال؟ فلما جاء عمر بن عبد العزيز كان الرجل يلقى الرجل فيسأله كم قمت من الليل؟ وكم حفظت من كتاب الله؟ خلال سنتين فقط.

ولم يفعل عمر ذلك بالسلاح ولا بقوة القهر، وإنما بالقدوة والورع.. وحينما يبعث له واليه في أفريقيا يقول له: لقد زادت الصدقات، ويسأله: ماذا يفعل بها؟ فيقول له: حرر العبيد. فيفعل، ثم يبعث له مرة أخرى، فيقول له: أسقط الجزية عن ضعفاء أهل الكتاب، ويظل المال وفيرا. كيف حدث هذا؟ وحينما يبعث عمر بن عبد العزيز خطاباً إلى والي مصر لكي يذهب إلى امرأة فقيرة شكت له تهدم بيت دجاجها، فيرسل إلى واليه أن ابن لها عش دجاجها.. امرأة من عامة المسلمين تبعث له بهذه الشكوى، وتقول له: يا عمر لقد استرعاك الله علينا ونمت. لم يستعمل قوة السلاح، ولا البطش، إنما استقام فاستقامت الأمة. ورغم استقامة عمر كان ابنه عبد الملك يتهمه بالتقصير. فالقضية ليست قضية كلام، وإنما هي قضية عمل. وقد قيل إن عمر مات مسموماً لأن الوليد بن عبد الملك وأخاه هشام بن عبد الملك وجَمْعَاً من بني أمية كانوا قد ضاقوا به لأنه أخذ كل أموال بني أمية وردها إلى بيت المال، فدسوا له السم. ثم توالت الكوارث بعد ذلك. ورأينا كيف كان الأمراء في عهد بني العباس، وخاصة في المرحلة الثانية -مرحلة الاستضعاف- كان الأمر هزليا، ينصب الطفل وسنه سبع سنين خليفة، تتلاعب به الحاشية من كافة الأجناس.

لذلك نقول إن الركام بدأ مبكراً. بدأت بذور الجاهلية من قديم، وكان من الممكن أن يرجع الناس عن ذلك. فما فعله معاوية -رضي الله عنه- ليس بالضروري أن يكون قانوناً، فهو قد اجتهد لقربه من الفتنة، ولخوفه على الناس، وقد يكون له ما يفسر عمله، وقد يغفر الله له هذا، أو يأجره على ذلك. لكن لماذا استمرت ولاية العهد حتى يومنا هذا كسبيل وحيد لمجيء الحكام؟

حينما حدث هذا حدث انفصام بين جسد الأمة وبين رأسها. ولم يعد الناس يهتمون باختيار الحاكم، لأنهم لم يعد لهم دخل فيه. فحدثت فجوات، أخذت تزداد كل يوم مع فساد الحكام، ومع فساد الذمم، ومع وجود علماء السلطة. وهكذا فسد الناس، وفسدت الحياة الدنيا.

فلا شك أن ركام الأجيال متعاظم جداً، هائل جداً، خاصةً أن الجاهلية المعاصرة استطاعت أن تستفيد من كل سلبيات الماضي، لكي تستغلها وتوظفها لمحاربة الإسلام.

الخطوة الأولى لإنقاذ البشرية من الهاوية: بعث إسلامي جديد

"لا بد من "بعث" لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة، التي لا صلة لها بالإسلام، ولا بالمنهج الإسلامي.. وإن كانت ما تزال تزعم أنها قائمة فيما يسمى "العالم الإسلامي"!!!

وأنا أعرف أن المسافة بين محاولة "البعث" وبين تَسّلم "القيادة" مسافة شاسعة.. فقد غابت الأمة المسلمة عن "الوجود" وعن "الشهود" دهرًا طويلاً. وقد تولت قيادة البشرية أفكار أخرى وأمم أخرى، وتصورات أخرى وأوضاع أخرى فترة طويلة. وقد أبدعت العبقرية الأوروبية في هذه الفترة رصيدًا ضخمًا من "العلم" و "الثقافة" و "الأنظمة" و "الإنتاج المادي".. وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته، ولا تفرّط فيه ولا فيمن يُمثّله بسهولة! وبخاصة أن ما يسمى "العالم الإسلامي" يكاد يكون عاطلاً من كل هذه الزينة!

ولكن لا بد -مع هذه الاعتبارات كلها- من "البعث الإسلامي" مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث وبين تَسّلم القيادة. فمحاولة البعث الإسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها.!"

ليس هناك حل غير هذا الحل؛ أن يقوم بعث إسلامي. والجاهلية -كما نراها- لا تفرط ولن تفرط بسهولة فيما أنتجته، وستحارب بكل عنف كل من تسول له نفسه أن يحطم هذا النتاج الفكري والثقافي والمادي الذي عندها. فيجب أن نعرف طبيعة المعركة، وأن نعرف أننا رغم ضعفنا وقلتنا سنواجه أمماً، بل سنواجه بشرية بأكملها، عندها رصيد، وعندها قوة، وعندها إصرار، وعندها اقتصاد.. كل هذا في مواجهة فئة قليلة من البشر لا يملكون غير إيمانهم. لكن ليس هناك بد من هذا.

الخطوة الأولى هي إقامة هذا البعث. ونحن رأينا في تاريخ البشرية أن الأفكار العظيمة نشأت في قلب رجل. ثم بالإصرار أنشأت حضارات وأمماً. وأن المد الإسلامي يبدأ من قلب المؤمن. من قلب واحد يشع في باقي القلوب. فالخطوة الأولى هي محاولة إقامة هذا البعث، لأنه ليس هناك خطوة قبلها، وليس هناك خطوة بديلة عنها.

مؤهلات هذه الأمة لقيادة البشرية

"ولكي نكون على بيِّنة من الأمر، ينبغي أن ندرك -على وجه التحديد- مؤهلات هذه الأمة للقيادة البشرية، كي لا نخطئ عناصرها في محاولة البعث الأولى.

إن هذه الأمة لا تملك الآن -وليس مطلوبًا منها- أن تقدم للبشرية تفوقاً خارقاً في الإبداع المادي، يحني لها الرقاب، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية.. فالعبقرية الأوروبية قد سبقته في هذا المضمار سبقًا واسعًا. وليس من المنتظر -خلال عدة قرون على الأقل- التفوق المادي عليها!"

فنحن لن نتقدم بهذا المؤهل، رغم أن المؤهل في ذاته مطلباً إسلامياً، ورغم حرصنا على وجوده، وحرصنا على محاولة التقدم المادي، ولكننا لا نملكه الآن، وليس من المنتظر -وقد سبقتنا أوروبا بقرون- أن يكون هذا هو المؤهل الذي نتقدم به.

فإذن لا بد أن نبحث عن مؤهل آخر لكي نقدمه للبشرية **"فلا بد إذن من مؤهل آخر! المؤهل الذي تفتقده هذه الحضارة!"**

"لا بد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية -غير الإبداع المادي- ولن يكون هذا المؤهل سوى "العقيدة" و "المنهج" الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية، تحت إشراف تصور آخر يلبّي حاجة الفطرة كما يلبيِّها الإبداع المادي، وأن تتمثل العقيدة والمنهج في تجمع إنساني. أي في مجتمع مسلم."

والتجمع الإنساني هو التجمع المسلم، ولا يكون هناك تجمع إنساني أبداً إلا أن يكون مسلما حقا..

وأي تجمع إما أن يكون إنسانياً وإما أن يكون أدنى من الحيوان. فحينما يكون المجتمع مسلماً فإنه يكون تجمعاً إنسانياً. ولا يوصف المجتمع الجاهلي أبدا بأنه تجمع إنساني. وهذا ما يغيظ الجاهلية؛ أن نتعامل معها على أنها شيء آخر غير إنساني.. فهم أي شيء آخر، وحتى لا نُحقّر الحيوان لا نقول إنهم مجتمع حيواني، لأن هذا افتراء على الحيوان. فالحيوان يقوم بمهمته، أي أنه كائن محترم يؤدي مهمته. فالنبات يؤدي مهمته، والحيوان يؤدي مهمته. أما أهل الجاهلية فهم لم يرتفعوا إلى هذا المستوى، فهم مجتمعات مشوهة، ليس لها اسم سوى أنها مجتمعات لا إنسانية.

فالمجتمع الإسلامي هو المجتمع الإنساني الوحيد.

"إن العالم يعيش اليوم.." فهو لم يستثن أحداً، **"إنَّ العالم يعيش اليوم كله في "جاهلية"..."** وبالتأكيد لو أن الأستاذ سيد كان يرى بقعة من الأرض لا تعيش في جاهلية لاستثناها، وهو يدرك ما يقول.

"إنَّ العالم يعيش اليوم كله في "جاهلية" من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها. جاهلية لا تخفف منها شيئًا هذه التيسيرات المادية الهائلة، وهذا الإبداع المادي الفائق!

هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله..."

فالعالم الآن كله يعيش في جاهلية. ومن طبيعة الجاهلية إنكار الكرامة التي قدرها الله للإنسان، لأنها حينما تعتدي على سلطان الله؛ أي حين تُعبّد الناس لغير الله سبحانه وتعالى، فإنها تحط من كرامة الإنسان.

ومن هنا يتميز الإسلام بأنه المنهج الوحيد الذي يكرّم الإنسان ويفرده بهذه الكرامة ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] فإحساس المسلم أنه يملك هذا المنهج الذي يحافظ على كرامة الإنسان إحساس لا بد أن يجعله قوياً ومعتزاً ومطمئناً وواثقاً. ولا نقول إنه يكون مستكبراً ولا متعالياً. هناك فرق بين الاستعلاء والتعالي، وفرق بين الثقة والكِبر. لا بد أن نعرف أننا على الحق، ولكن لا نستطيل على الناس بهذا الحق كما فعلت الكنيسة. ولا نستكبر على الناس لأننا نشعر بالتفرد والتميز والثقة. وهذا هو مفترق الطريق بين الإسلام وبين مناهج الجاهلية. إن الإسلام يحرر الإنسان من العبودية لغير الله، بينما الجاهلية تُعبّد الإنسان لكل شيء غير الله، فتجعله عبداً لآلهة مزيفة، ونحن نعرف في تاريخ البشرية وحتى الآن أناسا يعبدون البشر، وأناسا يعبدون الحيوان، وأناسا يعبدون البقر.

فالإسلام يحرر الإنسان من العبودية لأي شيء إلا الله، بينما الجاهلية تُعبّد الإنسان لكل شيء من دون الله. وهذا مفرق طريق مهم جداً لا بد أن نفهمه، ولا نقبل أبدا أنصاف الحقائق ولا أنصاف الحلول. نعم هناك ناس يقولون: نحن نعبد الله ونصلي ونصوم، ونذهب للكنيسة، ونؤم المسجد ونرتاد المعبد.. ولكن ماذا عن باقي النشاط الإنساني؟ إنهم يتجهون بعد ذلك ليتلقوا شرائعهم من البشر، ويستمدون قيمهم من البشر، ويحددون علاقاتهم من خلال قوانين يضعها البشر، أي أنهم يقسمون السلطة بين الله وبين البشر، فلا تعود الألوهية لله

وحده، وإنما هي شركة بينه -سبحانه- وبين البشر، وهذا في المفهوم الإسلامي يعني الشرك الأكبر الذي لا يقبل الله معه عملا آخر.. والله يقول (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فهو للذي أشرك وأنا منه برئ)[٣].. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨].. فالذي يشرك بالله يطرده الله عز وجل من رحمته، ولا يكون عبداً لله، لأنه يكون مشركاً، وعندما يكون مشركاً لا يكون عبداً لله حتى وإن كان يعترف بالله، حتى إن كان يقدم له بعض الشعائر ويرجع إليه في بعض القوانين كالأحوال الشخصية. فالله لا يقبلها منه، ويطرده من رحمته. لأنه أشرك معه إلهاً آخر.

ما هي مهمة البعث الإسلامي الأولى؟ وما الذي يميزه؟

ومن ثم نستطيع أن ندرك أن المهمة الوحيدة التي ينبغي أن يقوم بها المسلمون، أو البعث الإسلامي هي مهمة متخصصة؛ ألا وهي إبلاغ البشر بالدين الحق. وهذه هي الوظيفة الوحيدة، بحيث لا نطمح معها إلى وظيفة أخرى. لا نريد أن نكون متخصصين في الفقه، ولا نريد أن نكون نحاة مثل (سيبويه)، ولا أننا متخصصين في الأصول وقواعده، ولا الكيمياء ولا الطبيعة. ليس هذا تخصصنا. يجوز أن نعرف من كل شيء شيئاً، ولكن ليس هذا تخصصنا. وحتى لو تصورنا أنهم يمكن أن يتخصصوا في كل هذه المجالات، فالمتخصصون كثير. وحتى لو افترضنا أننا جميعاً حاصلون على شهادات دكتوراه في الفقه وفي الأصول وفي التفسير وفي النحو، فسوف نجد آلافا مؤلفة من الأزهريين مثلنا. فما الذي نتميز به عنهم؟ ولو أننا أصبحنا جميعاً أساطين في الكيمياء والطبيعة والطب فسوف نجد أمامنا آلافا من الغرب والشرق يحملون نفس الشهادات، بل نحن عالة عليهم في هذا.. إذن ليس هذا هو مؤهلنا، وليس هذا هو تخصصنا. إنما تخصصنا ومؤهلنا أننا عرفنا حقيقة هذا الدين وحقيقة دعوة الأنبياء، فنحن ندعو الناس إلى هذه الحقيقة. هذا هو تخصصنا ومؤهلنا. فلا ندخل أبداً في أي محاولة تبعدنا عن هذه الخصوصية وهذا التخصص. فإذا جاءوا في أي وقت يحاورونا فيسألونا في النحو أو في الفقه أو في الأصول أو في الحساب أو في الكيمياء.. نقول لهم: من قال لكم أننا ندعي أننا علماء في هذا؟ نحن ندعوكم إلى شيء واحد.. أن الله هو الله الواحد الأحد، صاحب السلطان على كل شيء، ونريدكم أن تدخلوا في سلطان الله وتخرجوا من سلطان العباد. القضية بسيطة وبديهية وسهلة.. فإما أن ترفضوها وينتهي الأمر، وإما أن تقبلوها وتقرونا عليها. فلماذا إذن تحاربوننا؟ ولماذا تعذبوننا؟ ولماذا تحبسوننا؟

فإذا أدركنا طبيعة هذا الدور، وأدركنا طبيعة القضية، فإننا نكون ساعتها أعزاء أقوياء، فلا يستدرجوننا إلى الأزقة الضيقة و"الحواري" المسدودة، ولكن نكون دائماً في الفضاء الرحب، ونحن الأعلى. وقد يكون رد الفعل على ذلك أن يقتلونا.. وساعتها نقول مرحبا بالشهادة، وتصبح تلك الصيحة التي صاحها ذلك الصحابي عندما أصابه سهم الغدر: فزت ورب الكعبة. ففاز وكان من بشائر فوزه أن أسلم قاتله إذ ظلت كلمة (فزت ورب الكعبة) يتردد صداها في أذن القاتل المشرك حتى ساقته للإسلام. فالقضية عندنا هي هكذا بديهية وواضحة بهذا الشكل.

ثم يقول الأستاذ سيد في تعبير يمثل قمة الثقة والاستعلاء واليقين، يقول **"إننا -دون شك- نملك شيئاً جديداً جدّة كاملة. شيئاً لا تعرفه البشرية. ولا تملك هي أن "تنتجه"!.."** هذا اليقين وهذه الثقة هي ما ينبغي أن يملأ قلوبنا. فالمسلم أو الداعية لا بد أن

٣ رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

يكون مفعم القلب باليقين والطمأنينة أنه على الحق، لذا فهو لا يتردد حين يعرضه ولا يتلجلج، ولا يكون في معرض المساومة أبداً فهو لا يداخله شك في أنه يملك شيئا جديدا جدة كاملة، شيئا لا تعرفه البشرية الآن، ولا تملك أن تنتجه.

إن هذه الفقرة قمة فعلاً في تصور نفسية الداعية المسلم. قمة العلم، واليقين بهذا العلم، والفرح بهذا العلم، والثقة به، ثم القوة الهائلة في التحدي لهذه الجاهلية. ويذكرنا هذا بموقف نوح -عليه السلام- الذي يورده القرآن ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].. قمة التحدي وقمة الثقة وقمة الطمأنينة. هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه الدعاة.. طمأنينة لا يخالجها شك، فنحن لسنا محتاجين إلى نقاش، ولا نحن محتاجون إلى علماء السلطة لكي يعلمونا الإسلام. وإذا جاءوا وقالوا ذلك نقول لهم: لستم أنتم الذين تعلموننا الإسلام.. أنتم تجهلون حقيقة الإسلام.. أنتم درستم أبواب النجاسة والطهارة بعمق ولكنكم لم تعنوا قط بالعلم بمعنى كلمة التوحيد وتوسعتم وتعمقتم في معرفة نواقض الوضوء لكنكم لم تشغلوا أنفسكم بالعلم بنواقض "لا إله إلا الله". أنتم بمعزل عن هذا الفقه الأكبر.. رضيتم بهذا أم لم ترضوا.. شئتم أم أبيتم. ونغلق الحوار. فلا تستخفنا استفزازاتهم، ولا رميهم لنا بالجهل أو السفاهة. إننا قرأنا كتاب الله وقرأنا سيرة رسول الله ﷺ، ورأينا كيف تحرك الأنبياء جميعاً بهذا الدين.. نحن عندنا علم هائل في هذه القضية، ودليلنا واضح، وكتابنا منير. بهذا اليقين نقابل الجاهلية.

لماذا تبدأ عملية البعث في الرقعة الإسلامية؟ وكيف تبدأ؟

"إننا -دون شك- نملك شيئاً جديداً جدة كاملة. شيئاً لا تعرفه البشرية. ولا تملك هي أن "تنتجه"!

ولكن هذا الجديد، لا بد أن يتمثل -كما قلنا- في واقع عملي. لا بد أن تعيش به أمة.. وهذا يقتضي عملية "بعث" في الرقعة الإسلامية.." لماذا في الرقعة الإسلامية؟ لأن هناك مازال في الرقعة الإسلامية بعض مشتركات من الممكن أن تكون محطات للتفاهم.. هم يؤمنون معنا بأن القرآن كتاب الله، ويؤمنون معنا بأن محمد ﷺ خاتم الرسل، ويؤمنون معنا بأن الله واحد، وأن الله هو الخالق والرازق والنافع والضار.. هذه قاعدة مشتركة من الممكن أن نبني عليها معهم بداية الحوار وبداية الدعوة.

وليس معنى هذا أن بقية الشعوب لا تُدعى. ولكن لا شك أن الرقعة الإسلامية بتاريخها وبأمجادها القديمة، وبعلمها وباتفاقها معنا على الإيمان بهذه الأمور -بصورة أو بأخرى- من الممكن أن تكون منطلقات جيدة لكي نقيم ذلك البعث الإسلامي.

كيف تبدأ عملية البعث الإسلامي؟

"فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامي؟ إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق.."

فأي فكرة لا بد أن تتمثل في إنسان. وهذا الإنسان يدعو إليها، ويتحمس لها، ويخلص في سبيلها، ويتمثلها تماماً. فلا بد من طليعة تعزم. والعزم هو أقصى ما يفعله الإنسان حينما يقدم على عمل. فالعزم يسبقه خاطرة، ويسبقه همّ. ويسبقه شعور ووجدان، ويسبقه انفعال وحماس، ثم بعد ذلك تأتي العزيمة. ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].. فصورة العزم هي آخر خطوات العمل التي تسبق التنفيذ.

"إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق. تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا. تمضي وهي تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة.."

حينما تبدأ هذه الطليعة في الإيمان بهذا الحق، وتبدأ خطواتها الأولى في مواجهة هذا الخضم الهائل من الجاهلية، تتحقق عندها تلك العزلة تلقائياً. وهذه العزلة ليست شيئا متكلفاً أو مصنوعاً. بل هو شيء يفرض نفسه فرضاً طبيعياً فنحن من خلال إدراكنا لهذا الحق وإسقاطه على الواقع نجد أننا على دين وقومنا على دين. حينذاك يحدث الانفصال الشعوري نتيجة أننا لم نعد من هذه الأمة، ولم نعد من نسيج هذه الأمة.. لم تعد أفكارنا ولا آمالنا ولا وسائلنا ولا مشاعرنا ولا وسائل تسليتنا ولا لهونا ولا جدّنا ولا أي شيء يماثل هؤلاء. انقطعت بيننا وبينهم الوسائل والوسائط، وأصبحنا شيئاً آخر غيرهم.

فالعزلة أمر نحن لا نصطنعه اصطناعاً، ولا نولده في نفوسنا وإنما هو النتيجة الحتمية لمعرفتنا بالحق والتزامنا به. والذي لا يشعر بهذه العزلة عندما يعرف الحق فعليه أن يوقن أنه لم يعرف الحق بعد. ولم يدخل هذا الحق إلى قلبه. لكن حينما يدخل هذا الحق مدخله الطبيعي، ويمتزج بدمائنا ومشاعرنا وقناعتنا، تحدث تلقائياً هذه العزلة الشعورية. وهي عزلة شعورية لأننا لم نقرر بعد العزلة العملية. ولذلك تكون هناك عزلة من جانب، ونوع من الاتصال مع الجاهلية من الجانب الآخر. نحن نعيش داخل الجاهلية. نأخذ ونعطي في عالم التجارة وعالم العلاقات وعالم الجوار وعالم الاجتماع وعالم التعليم. مازلنا نعيش وسط الجاهلية. وما زلنا نتعامل مع هذه الجاهلية. ولذلك لا بد أن يكون هناك جسور بيننا وبينها، وخاصة أن هذه الجاهلية هي المقصودة بالدعوة.. فلا بد أن يكون بيننا وبينها جسور. فلا ننعزل شعورياً وعملياً ونذهب إلى الكهوف ونذهب إلى الصحاري لكي نعيش فيها. فلم يفعل رسول الله ﷺ هذا. وإنما ظل يعيش وسط الجاهلية، يدعو أهلها، ويقيم لهم ولائم، ويرتبط بصداقات وعلاقات، ويأتمنونه على أماناتهم، ويتاجر معهم. كل ذلك كان يحدث رغم أنه ﷺ كان يحمل الحق في قلبه ويصر عليه.

حينما تمضي هذه الطليعة في الطريق، وتعزم العزمة، وتتحقق لها العزلة الشعورية.. بينما هي في عالم الواقع تتعامل مع الجاهلية، ستحتاج هذه الطليعة لمعالم في الطريق. وسنشرح فيما بعد كيف تتعامل هذه الطليعة مع الجاهلية، وما هي ميادين التعامل، وما هي القوانين التي تحكم هذا التعامل، والقيم والأهداف والوسائل، وكيف تحقق هي في نفسها العزلة الشعورية، وهذا سيكون مدار الشرح في بقية الكتاب.

معالم في طريق البعث الإسلامي

"لا بد لهذه الطليعة التي تعزم هذه العزمة من "معالم في الطريق". معالم تعرف منها طبيعة دورها.."

أول معلم يجب أن تعرفه هذه الطليعة هو **"طبيعة دورها"**؛ وهي القيادة: قيادة البشرية إلى الله، وقيادتها إلى الهدى، وتدرك أنه منوط بها عمل ضخم وخطير، فلا تستقل أو تقلل من شأنها أو من شأن نفسها. ستكون ممتلئة ثقة ويقينا بضخامة الوظيفة وضخامة العمل ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].. ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].. فلا بد أن يمتلئ الإنسان يقينا بأنه مكلف بالدور الضخم. فقد يرى الإنسان نفسه قليلاً. وقد يرى الإنسان نفسه بسيطاً. وقد يرى الإنسان نفسه صغيراً. لكن بما أن الله قد وظفه فليرتفع إلى مستوى الوظيفة، وليقبل عطية الله له باختياره من وسط هذه الجاهلية ليقول له اعمل على

طريق الأنبياء.. ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ولينهض وليتحمل التبعة وليسأل الله العون والمدد فما قلَّ من انتصر به ولا هان من لاذ بحماه.

والمعلم الثاني هو **"حقيقة وظيفتها"**؛ وهي البلاغ عن رب العالمين، ومحاولة هداية البشرية إلى هذا الحق. هذه هي الوظيفة؛ وهذه أعظم وظيفة يؤديها إنسان. وهي وظيفة الأنبياء. وهذه هي وظيفتنا؛ أن ندعو الناس إلى الحق. والعلماء ورثة الأنبياء. ولا بد أن نعرف أن هذه الوظيفة هي أعظم من أي شيء آخر. وهذا يعني أننا ينبغي أن نبذل من أجل هذه الوظيفة أضعاف أضعاف الذي نبذله في وظائفنا الأخرى. فعلينا أن نعمل بكل قوتنا لتحقيق متطلبات هذه الوظيفة. وليس من المروءة، وليس من الحق أن نعطي لهذه الوظيفة فضلة أوقاتنا، وفتات قوّتنا، وفتات أعمالنا وجهودنا. ليس هذا من العدل وليس هذا من المروءة ولا من الرجولة. لا بد أن نعطيها أغلى أوقاتنا وأغلى جهودنا.

والمعلم الثالث أن تعرف **"صلب غايتها"** وهي العبودية لله عز وجل. فلسنا طلاب حكم، ولسنا طلاب مال، ولسنا طلاب جاه، ولسنا طلاب مناصب.. لسنا شيئاً من ذلك. نحن قد نعيش ونموت لا يسمع عنا أحد. ولكننا فقط نريد أن نكون عبيداً لله رب العالمين، ومعنى أن نكون عبيداً لله رب العالمين ألا يكون هوانا مع شيء لا يريده الله رب العالمين إذ الإيمان لا يتحقق إلا بذلك فقد قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[٤]. هذه هي قمة العبودية، وهذا مرتقى عالٍ جداً، يحتاج منا لكي نتسلقه أن نتعب كثيراً من أجل أن نصل إلى أن يكون هوانا تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ، وهو الحق. كيف نصل إلى قمة هذا الجبل العالي الشامخ؟ إن هذا يحتاج منا جهودا. لا ينفع معه نوم ولا عبث ولا لعب. إنما ينبغي أن نعرف أن هذه الغاية من العظمة بحيث تحتاج منا إلى كل هذ الجهد. فالمعلم الثالث هو معرفة صلب غايتها وهي العبودية، وكل ما تقتضيه هذه العبودية من أوصاف وخصائص.

والمعلم الرابع أن تعرف **"نقطة البدء في الرحلة الطويلة"** وهي العقيدة بطبيعة الحال. أن يكون البدء دائماً بقضية العقيدة وقضية لا إله إلا الله.

والمعلم الخامس أن تعرف **"طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعاً"**، وهو التميز عن هذه الجاهلية، وتحديد موقفها من خلال المفاصلة والتميز عن هذه الجاهلية.

والمعلم السادس أن تعرف أيضاً **"أين تلتقي مع الناس وأين تفترق؟"** وهي قضية الولاء والبراء. أن تعرف كيف تتعامل وكيف تحب، وما هي نقاط الالتقاء وما هي نقاط الافتراق. وكل هذا يتحدد على أساسه الولاء والبراء مع هذه الجاهلية.

كما تعرف أيضاً -وهو المعلم السابع- **"ما خصائصها هي وما خصائص الجاهلية من حولها؟"** وهو ما نعبر عنه بمعرفة الواقع. فلا بد للطليعة هذه أن تعرف الواقع جيداً؛ تعرف خصائصها، ثم تعرف خصائص الجاهلية من حولها. وتحدد المسافة بينها وبين الجاهلية، وتحدد نقطة البداية التي سنتعامل بها أو منها مع الجاهلية.

---

٤ أخرجه الحسن بن سفيان وقال ابن حجر: رجاله ثقات، وصححه النووي في الأربعين النووية.

والمعلم الثامن أن تعرف **"كيف تُخاطِب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها؟"**، وهو المنهج. لا بد أن نعرف كيف نخاطب هذه الجاهلية. فليس كل خطاب صالحاً، وليست كل بداية صحيحة، وليست كل طريقة تؤدي إلى أن تدرك الجاهلية كل ما ندعو إليه. وهذا ما يفرق بين كثير من التيارات الإسلامية.

ثم المعلم التاسع **"أن تعرف من أين تتلقى -في هذا كله- وكيف تتلقى؟"**. تحديد المصدر وتحديد منهج التلقي وهو -أيضاً- أمر مهم جداً.

وأخيراً المعلم العاشر أن تعرف **"التصور الذي أَنشأه في نفوس الصفوة المختارة، التي صنع الله بها في الأرض ما شاء أن يصنع، والتي حولت خط سير التاريخ مرة إلى حيث شاء الله أن يسير."**

والصحابة هم النموذج الذي نطبق عليه حقائق الإسلام، لنرى كيف ظهرت؟ وكيف قامت في عالم الواقع؟

نرى كيف تحول عمر -رضي الله عنه- من عمر القاسي العنيف الدموي المستكبر إلى ذلك الرجل العالم الملهم الرحيم القائد الإداري.. كيف؟

كيف تحول خالد بن الوليد من عدو للإسلام إلى سيف الله المسلول؟

كيف تحول المغيرة بن شعبة من قاطع طريق، ليكون بعد ذلك نجماً من نجوم المجتمع الإسلامي؟

كيف ظهر الإسلام في نماذج حية.. لكي نقتدي بهم في حياتنا.

حينما كنا في الإخوان كانوا يقولون لنا: ليبحث كل واحد منا عن نظيره في الصحابة ويحاول أن يتخذه نموذجاً عملياً.. فمثلاً: الإنسان الذي يرى نفسه هادئ الطبع محباً للتعبد والتنسك يبحث عن الصحابي الذي يتميز بهذه المواصفات، ويحاول أن يرى كيف خاض معركته مع نفسه ومع الشيطان. والإنسان العصبي الهائج المائج يبحث عن واحد مثل عمر -رضي الله عنه- مثلاً، ليرى كيف استطاع عمر أن يتحول من ذلك الإنسان المتجبر العنيف إلى أن يكون رحمة للمسلمين؟ وكانت هذه فكرة لطيفة، نستطيع نحن أن نقتبسها. فيبحث كل واحد منا في الصحابة عن نظير له، يتأسى به، ويتطابق معه، باعتبار أن نماذج الصحابة بشر مثلنا. فيصعب علينا أن نتخيل أن نصل إلى أفق الرسول ﷺ لأنه نبي معصوم. لكن نستطيع أن نأمل؛ لماذا لا أكون مثل عمر؟ لماذا لا أكون مثل عبد الرحمن بن عوف؟ لماذا لا أكون مثل علي؟ لماذا لا أكون مثل محمد بن مسلمة؟ لماذا لا أكون مثل أبي سعيد الخدري؟ ويحاول أن يفهم كيف تعاملوا مع نفوسهم ليخرجوا منها هذه القمم الرفيعة العالية.

هذه المعالم العشرة هي محاور الكتاب بعد ذلك.. سنبحث -ونحن ندرس الكتاب- عن مؤهلات القيادة ومواصفاتها. ونبحث عن صور البلاغ وطريقته. كما نبحث عن معنى العبودية ومقتضياتها. كما سنتعلم العقيدة؛ كيف نبدأ بها، وكيف نشرحها. كما نعرف معنى التميز، وكيف يكون. ونعرف الواقع الذي حولنا. كما نتعرف على المنهج الذي نقدم به هذا الدين وتتحرك به بهذا الدين. ثم نعرف المصدر الذي نتلقى منه ومنهج التلقي. ثم ما هي علاقة الولاء والبراء بهذه الجاهلية. ثم النموذج والقدوة الذي ينبغي أن نتأسى به في حياتنا الواقعية، ونحققه في حياتنا العملية.